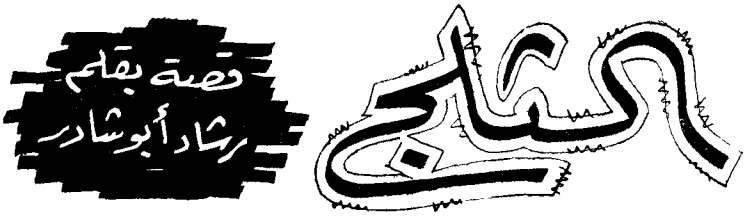

اخرجوهم في غبش الفجر . السماء شاحبة ، البرد يتسكع عبر النوافذ وشقوق الابواب، ينز رطوبته القاسية في مفاصل الجدران. كان وقع الخطى يأتي من الضيق الذي يفصل الزنازين ويجعلها متقابلة ، وكان لغط وسعال وشتائم وصيحات قوية . خفت الضجة. وتلاشى وقع الخطى ، وظل الصوت وحيدا لحظات. في ساحة السجن كانت اعمدة المشنقة عالية ، والحبال تتدلى منها وقد ضفرت في نهاياتها بشكل دوائر واسعة بعض الشيء كي تسهل عملية ادخال الرؤوس فيها .

تقدم الرجال ، شدوا الحبال حول رقابهم ، نفضوا اجسادهم، فارتفعوا في الفراغ ، ظلت عيونهم مفتوحة تنظر امامها باتجاه السجن حيث يقبع رفاقهم .

لا استطيع ان اقول انني افقت هذا الصباح . ذلك اني لم اذق طعم النوم طيلة هذه الليلة . أتذكر انهم اخرجوني في المساء الى غرفة التحقيق ، وكان الصراخ ينبعث من عدة جهات ، وجهوا الي ذات الاسئلة السابقة بترتيب مختلف ، وحين وجدوا ان اجوبتي لم تتغير دفعوني الى القبو .

كان الضوء الاصفر يملأ المكان ، وبقع الدم متخثرة ومرشوشة على جدران الغرفة .

بعد لحظات لم اعد ادرك ما يحدث ، وافقت في الزنزانة والجنود يدلقون الماء علي . كان الماء يرتفع في ارضها ، والاوجاع ترج بدني وتحطمه . استندت الى الجدار ، كنت كلما سهوت يهوي جسدي في الماء البارد فترتجف اوصالي ، وأهب لاصحو من جديد .

شعرت بالوحدة حين لم اسمع الخبطات المعتادة على جدران الزنزانة ، وايقنت انهم شنقوهم هذه الليلة . ملأتني الكآبة ، انتصبت ، أخذت احرك جسدي كي ادفئه قليلا واطرد الغد الفظيع الذي يجمدني .

الصقت وجهي بالباب الفولاذي البارد ، رأيت قطعا صغيرة بيضاء ،كثيفة ، تتساقط وتتراكم . صوت خطى في الممر ، صليل المفتاح في الباب ، جندي يوجه سلاحه باتجاهي ، والاخر يدلق صفيحة ماء جديدة ، ثم اغلق الباب .

قرفصت وظهري الى الجدار ، جاءتني نوبة شوق للاهل ،والاصحاب والمخيم والشاي الذي تعده امي في الصباح ، ونبرة والدي وهويصلي في الفجر . ما ابعد ذلك ، كأنه مجرد حكاية حفظتها الذاكرة منذ زمن بعيد ، بعيد جدا .

برودة فولاذ الباب تسري في جبيني وانفي . الندف الصغير يتطاير ، ثم يحط على الاشياء . الاشجار التي كنت اراها عادة ،تختفي تحت هالة بيضاء .

وقف امامي ، ابيض ناصعا ، وعلى شفتيه ابتسامة طفولية حلوة.

ـ انت وحيد .

قال لي :

ـ آه .. الفراغ ، العزلة ، الصراخ الانساني المتواصل ، هذا محزن .

قلت :

ـ كنت أمر بمخيمكم ، سمعت امك ووالدك واخوتك يتحدثون عنك باسى ، فقلت أزورك .

ـ هذا يهبني الفرح والامل ، ولكن عليك بالانتباه . فالشرطة هنا قساة ، وربما يطلقون عليك النار .

ـ انهم لا يخيفونني ، ذلك ان رصاصهم لا يستطيع قتلي .

وملأت وجهه ابتسامة ثقة وحب ، مد يده الي وقال :

ـ خذ ..

تناولت الشيء من يده ، غصن اخضر لدن ، له رائحة عطرة.

ـ هذا يجعلك تنسى انك وحيد ، حافظ عليه جيدا ، سيظل يهبك رائحة طيبة ، لا تهمله لانك ان فعلت ، سيجف .

أتت أقدام كثيرة في الممر ، في لحظات كانوا قد التفوا حول الشيخ الابيض الجليل ،وسددوا فوهات بنادقهم صوب رأسه وصدره.

جاء صوت خشن متوتر :

ـ ما الذي تفعله هنا ؟

ـ انا اذهب حيث اشاء .

ـ الا تعرف ان زيارة هذا الرجل محظورة ؟

عرفت انه يقصدني ، اغتبطت لاني أثير لهم المتاعب .

ـ أنا اذهب حيث اشاء ، وازور من اشاء .

ـ ولكنك دخلت الى بناء السجن ، واتصلت برجل زيارته محظورة، وتخطيت القوانين ، وغافلت الحراس .

ـ أنا اذهب حيث اشاء لاني لا اهتم بالقوانين او الحراس .

ـ ذلك يعني انك تعترف بجريمتك السوداء.

ـ يا للمخلوقات البائسة ، اني لا آبه لكم ، انا صديق الارض والاطفال والفضاء .

صرخ الصوت بجنون :

ـ اقتلوه .

انهمر الرصاص على بدنه ، لكنه ظل يمشي بثقة حتى وصل الرجال المعلقون في الفضاء ، احتضنهم بكلتا يديه وضمهم الى صدره ورفع رأسه بمهابة .

دخلت خيوط الضوء من تحت الباب نحيلة باهتة ، لكنها كانت كافية لجعلي ارى الجدران الكابية الرطبة ، والكوة الصغيرة عند السقف . قدرت أن الشمس وشيكا تطلع وتنعكس اشعتها على المدى الابيض الناصع ، وان الاطفال سيخرجون من بيوت التنك في مخيم البقعة للقفز والتراشق بالثلج .

رشاد ابو شادر